۱۶۵۹۸

مجلّه	الازهر
تاریخ نشر	ذوالقعده ۱۳۹۲ ق
شماره	۹ سال ۴۴
شماره مسلسل	
محلّ نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	حسن عزالدین الجمل
تعداد صفحات	۸۶۳-۸۵۹
موضوع	بیت العنکبوت
سرفصلها	عنکبوت در قرآن
کیفیّت	
ملاحظات	

دانشکده الهیات و معارف اسلامی مشهد

بيت العنكبوت

للدكتور حسن عز الدين الجمل

— ١ —

قال الله تعالى فى سورة العنكبوت :

« مثل الذين اتخـــذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

الآيات ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ من سورة العنكبوت

أقوال المفسرين :

بيوت العنكبوت التى تبنيها لسكناها ، وللقبض على فريستها دقيقة الصنع لأنها مكونة من خيوط على درجة عظيمة من الرقة تفوق رقة الحرير ، وهذا يجعل نسيجها أضعف بيت يتخذه أى حيوان مأوى له(١) .

تفسير الفخر الرازى :

وأسعدنى كثيرا أن أقرأ تفسير الفخر الرازى لهذه الآيات ، وإن كان طويلا بعض الشىء إلا أن فيه من العلم الكثير .

ففى الجزء السادس صفحـــة ٤٥٠ قال الرازى :

(ثم قال تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا ») .

لما بين الله تعالى أنه أهلك من أشرك عاجلا ، وعذب من كذب آجلا ، ولم ينفعه فى الدارين معبوده ، ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده ، مثل اتخاذه ذلك معبودا ، باتخاذ العنكبوت بيتا ، لا يجير آويا ولا يريح ثاويا - وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل :

المسألة الأولى : ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الأمثال ؟ فنقول فيه وجوه :

الوجه الأول : إن البيت ينبغى أن

(١) المنتخب فى تفسير القرآن الكريم المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

يكون له أمور : حائط حائل ، وسقف مظل ، وباب يغلق ، وأمور ينتفع بها ويرتفق - وإن لم يكن كذلك فلابد من أحد أمرين : إما حائط حائل يمنع البرد ، أو سقف مظل يدفع عنه الحر ، فإن لم يحصل منهما شيء فهو كالبيداء ليس ببيت ، لكن بيت العنكبوت لا يحميها ولا يكنها ، وكذلك المعبود ينبغي أن يكون منه الخلق والرزق ، وجر المنافع ودفع المضار ، فإن لم تجتمع هذه الأمور فلا أقل من دفع ضر ، أو جر نفع فإن من لا يكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة إليه سواء . فإذاً كما لم يحصل العنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معاني البيت شيء ، كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الأوثان أولياء من معاني الأولياء شيء .

الوجه الثاني : هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فإن البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب - والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولا يدفع الهواء القوى ولا الماء ولا النار - والخباء الذى هو بيت من الشعر أو الخيمة التى هى من ثوب إن كان لا يدفع شيئا ؛ يظل ويدفع حر الشمس . لكن بيت العنكبوت لا يظل فإن الشمس بشعاعها تنفذ فيه كذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الأمر فى الغير فإن لم يكن كذلك فيكون نافذ الأمر فى العابد ، فإن لم يكن فلا أقل من أن ينفذ أمر العابد فيه ، لكن معبودهم تحت تسخيرهم إن أرادوا أجلوه وإن أحبوا أذلوه .

الوجه الثالث : أدنى مراتب البيت أنه إن لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق ، لكن بيت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت ، فإن العنكبوت لو دام فى زاوية مدة لا يقصد ولا يخرج منها فإذا نسج على نفسه ، واتخذ بيتا يتبعه صاحب المال بتنظيف البيت منه المسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت ، فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغي أن يستحق الثواب فإن لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب والكافر يستحق بسبب العبادة العذاب .

الرازى يشير إلى قوة الخيط مع ضعف البيت

المسألة الثانية : مثل الله اتخاذهم الأوثان أولياء باتخاذ العنكبوت بيتا ولم يمثله بنسجه ، وذلك لوجهين :

الوجه الأول: أن نسجه فيه فائدة له، لولاه لما حصل، وهو اصطياد الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه، واتخاذهم الأوثان وإن كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا، لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو الدار الآخرة التي هي خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت.

الوجه الثاني: هو أن نسجه مفيد. لكن اتخاذها ذلك بيتا أمر باطل، فكذلك هم لو اتخذوا الأوثان دلائل على وجود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت إكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة. لكنهم اتخذوها أولياء كجعل العنكبوت النسج بيتا وكلاهما باطل.

المسألة الثالثة: كما أن هذا المثل صحيح في الأول، فهو صحيح في الآخر، فإن بيت العنكبوت إذا هبت ريح لا يرى منه عين ولا أثر، بل يصير هباء منثورا وكذلك أعمالهم للأوثان كما قال تعالى: «وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً».

المسألة الرابعة: قال مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء، ولم يقل آلهة، إشارة إلى إبطال الشرك الخفي أيضا، فإن من عبد الله رياء لغيره، فقد اتخذ وليا غيره، فمثله كمثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا، ثم أنه قال: «وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون» إشارة إلى ما بينا أن كل بيت فيه إما فائدة الاستظلال أو غير ذلك، وبيته يضعف عن إفادة ذلك، لأنه يخرب بأدنى شيء ولا يبقى منه عين ولا أثر؛ فكذلك عملهم لو كانوا يعلمون.

ثم قال تعالى: «إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم» قال الزمخشري: هذا زيادة توكيد على التمثيل حيث إنهم لا يدعون من دونه من شيء بمعنى ما يدعون ليس بشيء، وهو عزيز حكيم.

فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشيء أصلا؟ وهذا يفهم منه أنه جعل «ما» نافية وهو صحيح، والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل: إني أعلم أن الله واحد حق، يعني أعلم هذه الجملة. وإن كنا نجعل «ما» خبرية فيكون معناه: ما يدعون من شيء فالله يعلمه وهو العزيز الحكيم قادر إعدامه وإهلاكه، لكنه حكيم، يمهلهم ليكون الهلاك عن بينة، والحياة عن بينة. ومن هنا يكون الخطاب مع أمة محمد، صلى الله عليه وسلم.

وعلى هذا لو قال قائل : ماوجه تعليق هذه الآية بالتمثيل السابق ؟ فنقول : لما قال أن مثلهم كمثل العنكبوت ، فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الأوثان التى اتخذها وهى تحت تسخيرى ، وإنما هى صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعى وضرى وخيرى وشرى ووجودى ودوامى فله سجودى وإعطائى فقال الله تعالى : إن الله يعلم أن كل ما يعبدون من دون الله ، هو مثل بيت العنكبوت لأن الكواكب والملك وكل ماعدا الله لا ينفع ولا يضر إلا بإذن الله. فعبادتكم للحاضر ولا معبود إلا الله ولا إله سواه .

ثم قال تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس » قال الكافرون : كيف يضرب خالق الأرض والسموات الأمثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت؟ فيقال: الأمثال تضرب للناس إن لم تكونوا كالأنعام يحصل لكم منه إدراك يوجب نفرتكم عما أنتم فيه وذلك لأن التشبيه يؤثر فى النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل فإذا قال الحكيم لمن يغتاب : إنك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت ؛ لأنك وقعت فى هذا الرجل وهو غائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجيب كمن يقع فى ميت يأكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه إن كان يعلمه فينفر طبعه منه كما ينفر إذا قال أنه يوجب العقاب ويورث العذاب .

ثم قال تعالى: «وما يعقلها إلا العالمون» يعنى حقيقتها وكون الأمر كذلك لا يعلمه إلا من حصل له العلم ببطلان ماسوى الله ، وفساد عبادة ماعداه ، وفيه معنى حكمى ، وهو أن العلم الحدسى يعلمه العاقل ، والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم .

أبو حيان يفتح الباب ويمهد للتفسير الحديث .

وفى البحر المحيط الجزء السابع تأليف أثير الدين أبى عبد الله بن يوسف ابن حيان الأندلسى الغرناطى الجيانى الشهير بأبى حيان المولود سنة ٦٥٤ هـ المتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ هـ . جاء فى الصفحة ١٥٢ ما يلى : (... « لو كانوا يعلمون» ليس مرتبطا بقوله: « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » لأن كل أحد يعلم ذلك فلا يقال فيه « لو كانوا يعلمون » وإنما المعنى لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ من الوهن هذه الغاية لأقلعوا عنه وما اتخذوا الأصنام آلهة .

أبو حيان يلقى الأضواء على تفسير الزمخشرى وما فيه من تحميل للفظ ما لا يحتمله .

وقال الزمخشرى : « إذا صح تشبيه ما اعتمدوه فى دينهم بيت العنكبوت ، وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فقد تبين أن دينهم أوهن الأديان لو كانوا يعلمون ، أو أخرج الكلام بعد تصحيح التشبيه مخرج المجاز وكأنه قال : وإن أوهن ما يعتمد عليه فى الدين عبادة الأوثان ، لو كانوا يعلمون . « ولقائل أن يقول مثل المشترك الذى يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذى يعبد الله مثل عنكبوت يتخذ بيتا بالإضافة إلى رجل بنى بيتاً بآجر وجص أو نحته من صخر ، فكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت ، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان ، لو كانوا يعلمون » ، وما ذكره الزمخشرى من قوله « ولقائل أن يقول ... الخ » ؛ لا يدل عليه لفظ الآية ، وإنما هو تحميل للفظ ما لا يحتمله ...[1] » . (يتبع)

د. حسن عز الدين الجمل

(١) أبو حيان فى البحر المحيط ، الطبعة الأولى مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ .

١٦٥٢

الف - ٣٨

٤٦١